٦ ـ الانتحار

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيّب بنُ رافع : وانفض مجلسُ الشيخ ، ودرجتْ بعده أعوامٌ فى عدة الشهور من حمل المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلغَها من خير الدنيا وشرّها ، مما أعرفُ ومالا أعرف ؛ ودخلْتُ البصرة أنا ومجاهدٌ الأزديّ ، نسمع الحَسَنَ[(١)] ونأخذ عنه ؛ فانّا لسائران يوماً فى سكّة بني سَمُرَة ، إذ وافقنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبلاً علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرعَ اليه مجاهد فالتزمه وقال : مرحباً مرحباً بذى نَسبٍ الى القلب ؛ وسلّمتُ بعده وعانقته ؛ ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخرُ أوّلِك ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ أولها هى ؟

فضحك الرجل وقال : آلنصرانيةَ تعني ؟ قال : نعم . قال : آخرُها من أولها كهذا مني ؛ وأومأ الى ظله فى الأرض ممدودا مشبوحاً مختلطاً غيرَ متميز ؛ كأنه ثوبٌ منشورليس فيه لابسُه ، وكنا فى الساعة التي يصير فيها ظلُّ كلِّ شيءٍ مثليْه فهو مَزْجُ المسخ بالمسْخ . . .

قال مجاهد : ما أفَظَّ جوابَك وأثقلَه يارجل ؟ كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثمانها ؛ فنظرُه الى فراهةِ الدابة من الدّوابّ والى فراهة الجارية من الرقيق سواء :

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعةَ على طريق الايوان[(٢)] الذى يلتقي فيه تجارُ العراقِ والشامِ وخُراسان ؛ وقد ضربتُ فى هذه التجارات وحسُنتْ بها حالى وتأثّلْتُ منها ؛ غير أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر ، فليس يَزِنُ ولا يقبض ، ولا يبيع ولايشترى . أما «تلك» فأصبحت نسياناً ذهب لسبيله فى الزمن !

قال مجاهد : فكيف كنتَ تراها وكيف عدْتَ تنظر اليها ؟

قال : كنت أنظر اليها بعينيّ وأفكارى وشهواتى ؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضى ؛ فلما دخل بيني وبينها الزمنُ والعقل ، أبعدَها هذا من قلبي وأبعدها ذاك عن خيالى ؛ فنظرتُ اليها بعينيّ وحدهما ، فرجعتْ امرأة ككل امرأة ؛ وبنزولها من نفسى هذه المنزلة ، رجعتْ أقلّ من نفسها ومن النساء ، وهذه القلّةُ فما عرفتُ لا تُصيب امرأةً عند محبّها إلا فعلتْ بجمالها مثلَ ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها ، فأدبرَتْ به ثم أدبرتْ واستمرتْ تُدْبِر !

وأنتَ فاذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَت التي كانت فيها . . . وأخطرْتَ فى ذهنك نِيةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوةَ والميلَ ، إلا النّفْرةَ والمعصية ؟ إن هذا الذى كان الحبّ والهوى والعشق ، هو بعينه الذى صار الاثمَ والذنب والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبها قتلتَها هى فى نفسك ؟

قال : يا رحمةَ قد رحِمَتْ بها نفسى يومئذ ! أمَا والله إن الذى يقتل نفسه من حب امرأةٍ لَغبيّ . ويحَهُ ! فليتخلّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسِها . وقد جعل الله للحب طرَفين : أحدهما فى اللذّة ، والآخرُ فى الحماقة ؛ مامنهما بدّ . فهذا الحبّ يُلقِى صاحبَه فى الأحلام ويُغَشّى بها على بصره ، ثم إن هو اتجه بطرَفه السعيد الى حظّه المقبِل واتفقت اللذّةُ للمحب — أيقظته اللذةُ من أحلامه ؛ وإن اتجه الحبُّ بطرفه الشقيّ الى حظّه المُدْبِروفمت الحماقاتُ فنوناً شتّى بين الحبيبين ، وفعلتْ آخراً فعلَ اللذة فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضاً . وهذا تدبيرٌ من الرحمة ، فى تلك القوّة المدمّرة المسماة الحبّ . أفلا يدلّ ذلك على أن اللذةَ وهمٌ من الأوهام مادام تحقّقُها هو فناءَها ؟

خذْ عني يا مجاهد هذه الكلمة : « ليس الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ، ولا هو شيءٌ يُدْرك ، ولكنّ من عظمة الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكُه »

قال مجاهد : لقد علمتَ بعدَنا علماً ، فمن أين لك هذا ، وعمّن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلُك ، فهل نزل عليك الوحى ؟

---

(١) الحسن البصرى الامام العظيم (٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصه)

قال الرجل : لا ، ولكن تعاليا معي الى الدار فأحدثكما

* * *

قال السيب : وذهبنا معه ؛ فأتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتنا الدار أن ربها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيه يا أبا . . . يا أبا من ؟ قال : أبو عبيد . قال : هيه يا أبا عبيد . . .

فأفكر الرجل ساعة ثم قال : عهدي بي منذ تسع في مجلس الامام الشعبي بالكوفة ؛ وقد كنت في بقية من النعمة أتجمل بها ، وكانت تمسكني على موضعي في أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تدق وتنفض حتى نكد عيشي ووقفت في الأيام القمدة التي لا تمشي بصاحبها ، وانقلب الزمن كالعدو المغير جاء ليصطلم ويخرب ويفسد ، فأثر في أقبح آثاره ، فبعت ما بقي لي وتحملت عن الكوفة الى البصرة ، وقلت : إن لم تتغير حالي تغيرت نفسي ، ولا أكون في البصرة قد انتهيت الى الفقر ، بل أكون قد بدأت من الفقر كما يبدأ غيري ، وأدع الماضي في مكانه وأمضي الى ما يستقبلني

فالتمست رفقة فالتأمنا عشرين رجلاً ، فلما كنا في الطريق ، سلبنا اللصوص وحازوا القافلة وما تحويه ، ونجوت أنا راكباً فرسي وعمري ، وأدركت حينئذ أن الحياة وحدها ملك عظيم ، وأنها هي الأداة الإلهية ، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هين والخطب يسير

وقلت : لو أن اللصوص قد مروا بنا كما يمر الناس بالناس لما نكبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عروض اللص للمال والمتاع لا للناس فوضعوا فينا الأيدي الناهبة ، ومن هذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها . فاذا كان ذلك فأصل السعادة في الانسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عرضت له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشر كما يراه واقعاً في غيره ؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ونظرت إلى نفسها وحظ نفسها فقد تعمى وتزل ، ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تريها الأشياء مجردة كما هي في حقائقها

قال : ومضيت على وجهي تتقاذفني البقاع والأمكنة ، وأنا أعاني الأرض والسماء ، وأخشى الليل والنهار ، وأكابد الألم والجوع ، حتى دخلت البصرة دخول البعير الرازح قطع الصحراء تأكل منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفر وحسره الكلال ومحته الثقل الذي يحمله ، فجاء ببنية غير التي كان قد خرج بها . وكانت أيامي هذه عمراً كاملاً من الشقاء جعلتني أوقن أن هؤلاء الناس في الحياة إن هم إلا كالدواب تحت أحمالها ، لا تختار الدابة ما تحمل ولا من تحمل ، ولا يترك لها مع هذا أن تختار الطريق ولا مدة السير وليس للدابة إلا شيئان : صبرها وقوتها ؛ إن فقدتهما هلكت ، وإن وهنا فبها كان ضعفها بحسب ذلك

إن هناك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تقذف بالانسان وراء انسانيته وإنسانية البشر جميعاً لا تبالي كيف وقع وفي أي واد هلك ، فلا ينفع الانسان حينئذ إلا أن يعتصم بأخلاق الحيوان ، في مثل رضاه الذي هو أحكم الحكمة في تلك الحال ، وصبره الذي هو أقوى القوة ، وقناعته التي هي أغنى الغنى ، وجهله الذي هو أعلم العلم ، وتوكله الذي هو إيمان فطرته بفطرته . لا يبالي الحيوان مالاً ولا نعماً ولا متاعاً ولا منزلة ولا حظاً ولا جاهاً ، ولن تجد حمار الملك يعرف من الملك أكثر مما يعرف حمار السقاء من السقاء ؛ ولعلك لو سألتهما وأطاقا الجواب لقال لك الأول : إن الذي فوق ظهري ثقيل مقيت بغيض ؛ ولقال لك الثاني : إن الذي يركبه خفيف سهل سمح !

ولكن بلاء الانسان أنه حين يطوحه البؤس والشقاء وراء الانسانية ، لا ينظر لغير الناس ؛ فيزيده ذلك بؤساً وحسرة ، ويمحق في نفسه ما بقي من الصبر ، ويقلب رضاه غيظاً ، وقناعته سخطاً ، ويبتليه كل ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تجد من تدمره غير صاحبها ؛ فاذا هي وجدت مساغاً إلى الناس فأهلكت وعاثت وأفسدت جعلت صاحبها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرماً أي ذلك تيسر !

* * *

قال : وكنت أعرف في البصرة فلاناً التاجر من سراتها ووجوه أهلها ، فاستطرقته فاذا هو قد تحول إلى خراسان ، وليس يعرفني أحد في البصرة ولا أعرف أحداً غيره ؛ فكأنما

نكبتُ مرةً ثانية بفارقٍ شرٍّ من تلك ، غير أنها قطعت عليّ في هذه المرة طريقَ أيامي ، وسلبتني آخر ما بقي لنفسي وهو الأمل !

ورأيتُ أنه ما من نزولي إلى الأرض بُدٌّ ، فأكون فيها انساناً كالدّابة أو الحشرة ، حياتُها ما اتفق لاما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأي إلا أن أسخر من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القوي الكريم ، قبل أن تسخرَ هي مني إذا جئتها ، وأنا الطامع العاجز !

وفي الأرض كفاية كلٍّ ما عليها ومن عليها ولكن بطريقتها هي لا بطريقة الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمةً على التغيير والتبديل وتحوُّل شيءٍ إلى شيء ، فهذا الظبي الذي يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنه قد أُكل ولا أنه افتُرس ومُزِّق ، بل هو عندها قد تحول قوة في شيءٍ آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خطبٌ طويل في حكاية أوهام من الخوف والوجل ؛ كما لو اخترعتَ قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحماً . . . فتعهده فأنبته لحصده فأكله ، فذهبَ الزرع يحتج على آكله ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعتني أنت ، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمسُ عليّ وعليك !

والانسانُ يرى بعينيه هذا التغيير واقعاً في الانسانية عامتِها وفي الأشياء جميعها ؛ فاذا وقع فيه هو ضجّ وتسخط ، كأن له حقاً ليس لأحدٍ غيره ؛ وهذا هو العجيب في قصة بني آدم ، فلا يزال فيها على الأرض كلماتٌ من الجنة لا تقالُ هنا ولا تفهم هنا ؛ بل تحلُّ الاعتراض بها حين يكون الانسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل . ومن هذا كان خيالُ اللذة في الأرض هو دائماً باعث الحماقة الانسانية

قال أبو عبيد : وذهبت أعتملُ بيدي وجسمي على آلام من الفاقة والضرّ ، ومن الخيبةِ والاخفاق ، ومن إلحاح المسكنة وإحواج الخصاصة ؛ فلقد رأيتني وإن يدي كيد العبد ، وظهري كظهر الدّابة ، ورجلي كرجل الأسير ، وعنقي كعنق المغلول ، ويطلعُ قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتملُ إلا بقرص من الخبز ، ولقد رأيتني أبذُلُ في صيانة كلّ قطرةٍ من ماء وجهي سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤساً لي إن سألتُ وإن لم أسأل !

وما كان يُمسكني على هذه الحياة المُمزّقة ، تأتي رمقاً بعد رمق في يومٍ يوم — إلا كلامُ الشعبيّ الذي سمعتُه في مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل نفسه . فكان كلامه نوراً في صدري يشرق منه كلّ يوم مع الصبح صبحٌ لإيماني . ولكن بقيتْ أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضربانٌ من الوجع كالذي يجده المجروح في جرحه إذا ضرب عليه ، فكان الشيطان لا يجد منفذاً إليّ إلا منها . وفقدتُ الصديق وعونه ، فما كان يقبل عليّ صديق إلا في أحلامي من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسَّم الرجل وقال : إذا فرَغت الحياةُ من الذي هو أقلُّ من الممكن ، فكيف يكون فيها الذي هو أكثرُ من الممكن ؟ إن جوعَ يوم واحدٍ يجعل هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لاشعرَ فيها ، ويترك الزمنَ وما فيه ساعةٌ واحدةٌ مُعَطَّرة . . والبؤس يَقَظةٌ مؤلمة في القلب الانسانيّ تُحرِّم عليه الأحلام ؛ وما الحبّ من أوّله إلى آخره إلا أحلامُ القلوب بعضِها ببعض !

***

قال أبو عُبيد : وتَضعضعتُ لهذه الحياة المُخزية وأبرَمتني أيامُها ، وحملتُ في الميّتَ والحيّ ، ورأيتُ الشيطانَ لعنه الله كأنما اتخذني وعاءً مُطرَّحاً على طريقه يلقي فيه القمامة . . ؛ وظهر لي قلبي في وساوسه كالمدينة الخربة ضربها الوباءُ فأعمرُ ما فيها مقبرتُها ؛ وعاد البؤسُ وقاحَ الوجهِ لا يستحي ، فلا أراه إلا في أرذلِ أشكاله وأبردِها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس على شيءٍ من الحياء فيأتي في أسلوبٍ معتذرٍ كالمرأة الدميمة في نقابها .

وقلت لنفسي : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عمر أراه كالأسير أُقيم على النِّطع وسُلّ عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقم بأفظع من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحمُ بأحسنَ من تعجيلها !

وبتُّ أؤامر هذه النفسَ في قتلها وأحدّثها حديث الموت فسدَّدت رأيي فيه ، وقالت : ما تصنعُ بجسم كالتعفّن أصبح كالقبور لا أيامَ له إلا أيامُ انقراضه وتفتيته ؟ بَيْدَ أني ذكرتُ كلامَ (الشعبيّ) في ذلك المجلس وأنا أحفظه كلّه ، فجعلتُ أهذّه[١] ما أترك منه حرفاً ، واتخذته متكلماً مع نفسي لا كلاماً ، وكنتُ كلما غلبني الضعف رفعتُ به صوتي وأصغيتُ كما أصغى

(١) الهذ الاسراع في القراءة

إلى إنسان يُكلِّمني ؛ فرأيت الشيطانَ بعد ذلك كاللصِّ إذا طمع في رجل ضعيف منفرد ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانياً قوياً فهرب !

قال أبو عُبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجعلت له السكينةَ في قلبي فنمت ، فاذا الفزعُ الأكبر الذي لا ينساه من سمع به فكيف الذي رآه بعينيه ؟

رأيتُني ميتاً في يد غاسله يُقلِّبه ويغسله كأنه خِرْقة ؛ ثم حُملت على النعش ، كأن الحاملين قد دفعوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف بصير الناس ؛ ثم صلى عليَّ الامام الشعبي في مسجد الكوفة ؛ ثم دُلِّيتُ في قبر مُظلمةٍ وهِيلَ التراب عليّ ، وتُركتُ وحيداً وانصرفوا !

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نُفخ في الصُّور وبُعثرت الأموات جميعاً ، فطرنا في الفضاء ، وكانت النجوم غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عَرَصات القيامة وفي هول الموقف !

وتوجّهتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله؛ ورأيت أعمالي رؤيةً أحزنتني ، فهي كدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحد في الساعة بعد الساعة ، ندَروا وتَبعثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة !

وذكرتُ أني كدتُ أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم ، فنظرت ، فاذا الزمن قد ظهر في أبديّته ، ورجع الماضي حاضراً بكل ما حوى كأنه لم يمض ، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفةَ عين من دهر طويل ، فحمدتُ الله أني لم أفتدِ ألم اللحظة القصيرةِ القصيرة ، بعذاب الأبد الخالدِ الخالدِ الخالد .

وجيءَ على أعين الخلْق بأنعَم أهل الدنيا وأكثرهم لذّاتٍ في تاريخ الدنيا كلّه ، فصاح صائحٌ : هذا أنعمُ مَن كانَ على الأرض منذ خلَقها الله إلى أن طواها . ثم غُمس هذا المتنعِّم في النار غَمْسةً خفيفةً كنَبْضةِ البرق ، وأُخرجَ إلى المحشر ، وقيل له والناسُ جميعاً يسمعون : هل ذُقتَ نعيماً قطُّ ؟ قال : لا والله

ثم جيءَ بأتعس أهل الأرض وأشدهم بؤساً منذُ خُلقت الأرض ، فغُمسَ في الجنة غَمْسةً أسرعَ من النسيم تحرُّكَ ومر ، ثم أُخْرجَ إلى المحشر وقيل له : هل ذُقتَ بؤساً قطُّ ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيقَ جهنمَ وهي تفور ، تكاد تَميَّزُ من الغيظ ؛ فأيقنتُ أن لها نفساً خُلقتْ من غضبِ الله . وخرج منها عنُق عظيم هائل ، لو تضرمت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقطُ صِنفاً صِنفاً من الخلق ؛ وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرَّةً واحدة كالمغناطيس لتراب الحديد ؛ وقذفَ بهم إلى النار ؛ ثم انبعثَ فالتقط الأغنياءَ المفسدين فأطارهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً وقد ألجمني العرَقُ من الفزع ؛ ثم طرتُ أنا فيه ونظرتُ فاذا أنا محتبس في مُظلمةٍ ناريّة كالهاوية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسِهم . ولو أن بحار الأرض جُمعَ فيها البحر فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلُّها فيكون العمق كبُعْدِ مابين الأرض والسماء ، ثم تُسجرُ ناراً تلظّى لكانت هي الهاوية التي نحن في أعماقها ، وكنتُ سمعتُ من إمامنا الشعبي أن عُصاةَ المؤمنين الموحدِّين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياءً وجوارحهم مَوْتى ؛ لأن هذه الجوارحَ قد أطاعت الله وسبَّحته فكرُمتْ بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذّبون عذاباً فيه الرحمة ، ثم يخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسه ، فسمع قائلا من بعيد يقول لمؤمن : أخرج فان إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرني إيماني ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلا ذبحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة ، فلا يخرج الصوتُ من حلقه ، إذ كان قد فرّاه وبقي مُفريا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمدية ، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيــه نية صالحة ، فلا تزال تسلخ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تحسَّى من السم فمات ظمآن يتلظّى جوفه ، فلا تزال تَنشأ له في النار سحابةٌ رويّةٌ تبرق بالماء ، فاذا دَنتْ منه ورجاها انفجرتْ عليه بالصواعق ثم عادت تنشأ وتنفجر !

وقال رجل إنما كنت مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسي فنوديَ : أوَ ما علمتَ أن اللهَ يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون